عن الروح القدس

في كتاب القديس باسيليوس

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٤

www.coptology.org

كتاب القديس باسيليوس

عن الروح القدس

كُتِبَ حوالي ٣٧٥م أي قبل انعقاد المجمع المسكوني الثاني سنة ٣٨١م الذي ناقش الانحرافات الخاصة بالروح القدس، وأُكمل الجزء الخاص بالروح القدس في قانون الإيمان النيقاوي ٣٢٥م، ولذلك يجيء هذا الكتاب الهام في سلسلة متكاملة للدفاع عن الإيمان الرسولي، فقد سبقته رسائل القديس أثناسيوس لسرابيون عن الروح القدس، ثم كتاب ديديموس الضرير، وبعده كتاب باسيليوس، ثم كتاب أمبروسيوس، والذي اعتمد فيه على ما سجله باسيليوس لا سيما «التسليم الرسولي غير المكتوب».

من زاوية تاريخية بحتة يصبح الإدعاء بأن إلوهية الروح القدس اختُرِعَت في المجمع المسكوني الثاني ٣٨١م من الأخطاء الفادحة التي يروجها ضعاف العقول، الذين لا يعرفون شيئاً عن تاريخ الكنيسة أو اللاهوت المسيحي.

لقد كتب الكتاب دفاعاً عن الذكصولوجية التي كانت تُستَعمل في كنائس آسيا الصغرى، ويهمنا أن نسجل أن هذه الذكصولوجية كانت تُستعمل في الصلوات وفي اجتماعات الكنيسة وبشكل خاص في الإفخارستيا.

وشاعت في الكنيسة شرقاً وغرباً الذكصولوجية القديمة: "المجد للآب والابن والروح القدس"، وهي أكثر الصيغ المعروفة في الشرق، ومع ذلك فقد عرفت الكنيسة في

الشرق أيضاً الصيغة التالية:

المجد للآب بالابن في الروح القدس.

διά τού υίού εν τώ άγίω πνευματι

وهي صيغة سليمة تماماً ولا غبار عليها.

أما الذكصولوجية سبب كتابه هذا الكتاب فهي:

"المجد للآب مع الابن مع الروح القدس".

μετα τού υιού σύν τώ πνεύματι αγίω

وقد أكد باسيليوس أن هذه الصيغة قديمة مثل الصيغ الأخرى، وأنها سليمة تماماً لأنها تؤكد وحدة الجوهر للثالوث القدوس مع تمايز الأقانيم.

الطبعات الأساسية:

بجانب النص اليوناني الذي نُشِرَ في مجموعة الأباء اليونانيين مجلد ٣٢ عامود ٦٢ – ٢١٧، توجد طبعة هامة جداً حققها العالم الإنجليزي «*C.F.H. Johnston*» صدرت عام ١٨٩٢ في أوكسفورد، ثم طبعة أخرى عام ١٩٤٧ في السلسلة الفرنسية «الينابيع المسيحية S C مجلد ١٧ بذل فيها المترجم الفرنسي جهداً خارقاً لنقل أفكار باسيليوس إلى الفرنسية.

ويجب أن نعترف بأن النص اليوناني عويصٌ جداً، فقد كَثُرت فيه الجمل الاعتراضية، كما لجأ باسيليوس إلى استخدام مصطلحات يونانية من الفلسفة والأدب اليوناني القديم، وفصاحة باسيليوس لا مثيل لها إلَّا فصاحة كيرلس السكندري، ورغم صعوبة النص اليوناني إلَّا أنه تميَّز بالدقة الشديدة.

وتعد مقالة الأب «*Pruche*» وهو ناشر الترجمة الفرنسية من أهم الدراسات التي صدرت حتى الآن وهي بعنوان:

L'originalité du traité de Saint Basile Sur le Saint Esprit.

وقد نشرت في مجلة:

Revue de Sciences Philosophiques et Theologiques, Vol. 32 pp. 207 - 221. Paris 1948.

الترجمة العربية اللبنانية:

بعد إعداد هذه الترجمة، صدرت ترجمة عربية في لبنان ١٩٧٩ وهي وإن كانت قد طُبِعَت قبل الترجمة التي أعددناها، إلَّا أننا عند المراجعة والمقارنة، ظهر أن ما قدمناه هو أكثر التصاقاً بالتعبيرات اليونانية.

محتويات الكتاب

الموضوع الأساسي:

يبدو بشكلٍ واضح أن الموضوع الأساسي هو الدفاع عن إلوهية الروح القدس، وعن حقيقة اشتراكه في جوهر اللاهوت. وقد لاحظ علماء الآباء جميعاً أن القديس باسيليوس قد تجنب الكلمة اليونانية المشهورة «*OMOOUSIOS*»، رغم أنها إحدى الكلمات الأساسية لفترة ما بعد نيقية، وهذا كان عن عمد، لكي لا يحاول التقرُّب من البدعة الأريوسية، وإنما الدفاع عن الإيمان النيقاوي بطريق غير مباشر، وإثبات صحة الإيمان النيقاوي بدون الاعتماد على اللفظ المشهور "الواحد مع الآب في الجوهر – *OMOOUSIOS*».

هذا الذكاء الشديد، جعل القديس باسيليوس يستخدم كلمة يونانية أخرى تعطي المعنى، بل تؤكد إلوهية الروح القدس، ولكن بشكل عملي واضح. هذه الكلمة هي «*TIMEOUSIOS*» التي تفيد الشركة في القوة والمجد والعمل والجوهر. هذا الأسلوب الخاص بالقديس باسيليوس كان مقصوداً لكي يثبت وحدة جوهر الثالوث عن طريق دراسة الأعمال التي يقوم بها الروح القدس بالإشتراك مع الآب والإبن، وهذا الأسلوب أقرب إلى عقول الناس وإلى إدراكهم لحقيقة الإيمان، ويجعل هذا الكتاب نموذجاً للكتابة اللاهوتية الجيدة التي تهدف إلى الدخول إلى عقل القارئ وقلبه عن طريق الممارسة أكثر من الكلام عن النصوص وشرحها. من هذه الزاوية، يمتاز هذا البحث الجميل عن رسائل أثناسيوس عن الروح القدس التي كتبها إلى سرابيون[1]، في أنها لا تحشد النصوص الخاصة

---

(1) ترجمها القس مرقس داود، ونشر الرسائل الأربع الأول، ونشر مترجم هذا الكتاب الرسالة الخامسة في مجموعة مقالات عن الروح القدس بعنوان "الروح القدس في بعض كتابات الآباء". وفيما بعد قام المركز الأرثوذكسي للدراسات

بالروح القدس من العهدين القديم والجديد، وهو الجهد الخارق الذي قام به أثناسيوس، وعن عمدٍ أيضاً، لم يسلك باسيليوس نفس طريق أثناسيوس لعدة أسباب واضحة وأهمها:

(أ) كان الجدل الخاص بالروح القدس قد تطوَّر كثيراً عن زمن القديس أثناسيوس، ولم تعد نصوص الكتاب المقدس بعهديه كافية لإقناع المجادِلين.

(ب) كان الجدل قد تناول عدة نقاط دقيقة مثل استعمال حروف الجر، أو صيغة الإضافة لإثبات الفروق بين الأقانيم، ولذلك لم تعد النصوص المباشرة عن الروح القدس كافية للرد على هذا الاتجاه بالذات.

(ج) على الرغم من أن مجمع نيقية كان قد حكم على الأريوسية، إلَّا أن مجمع نيقية الذي عُقد سنة ٣٢٥م كان قد ترك موضوع علاقة الروح القدس بالابن دون تحديد؛ لأنها لم تكن قد طُرحت بعد للبحث، وعلينا أن لا ننسى أن كتاب باسيليوس يجيء بعد حوالي ٥٥ عاماً من انعقاد مجمع نيقية وفي ظروف جدلية مختلفة.

ومع كل هذا، فإن الأساس اللاهوتي الذي بنى عليه باسيليوس، لا يختلف مطلقاً عن الأساس اللاهوتي لرسائل أثناسيوس عن الروح القدس، فكلاهما يعتبر أن القضايا الآتية هي أساس التعليم الأرثوذكسي السليم:

١– عمل الروح القدس في المعمودية، فهو يقدِّس ويكمِّل كل الذين يُقبِلون إلى الله.

٢– لأن "الآب يعمل كل شيء بالإبن وفي الروح القدس"، هذه عبارة لا تقِلُّ في أهميتها عن قانون الإيمان النيقاوي نفسه.

الآبائية بالقاهرة بترجمة هذه الرسائل ترجمة جديدة ونشرها في عدة طبعات.

كما أن طريقة بناء الشرح اللاهوتي نفسه واضحة جداً، فكلاهما يستخدم:

(أ) التسليم الرسولي.

(ب) نصوص الكتاب المقدس.

ما هو التسليم الرسولي:

لكي ندرك أهمية هذا السؤال، علينا أن نلقي نظرة على طريقة الآباء في شرح العقيدة الأرثوذكسية. فالتسليم ليس تياراً موازياً أو منفصلاً عن الكتاب المقدس. وهذا يظهر من طريقة شرح الآباء.

كيف شرح الآباء العقيدة؟

لا يحشد الآباء أكبر عدد من نصوص الكتاب المقدس لشرح عقيدة معينة، فهذا في الحقيقة ليس منهج الآباء مطلقاً. وإنما طريقة الأباء تقوم على عرض الأساس اللاهوتي أولاً الذي يفسِّر الكتاب المقدس، وهو الإطار اللاهوتي الذي تُجمع حوله كل نصوص وكلمات الكتاب المقدس. ولكي تظهر هذه النقطة بوضوح، يمكننا أن ندقق في حقيقة الموقف الأريوسي نفسه الذي رفض الإيمان بلاهوت الإبن، ثم تطور الرفض إلى جمع نصوص الكتاب المقدس لكي تخدم الهرطقة نفسها. فلا يحاول الأباء بالمرة أن يجمعوا بدورهم نصوصاً أخرى تؤكد العكس، وهذا ما يخطئ البعض في التعرف عليه، وإنما ما يفعله الأباء هو أكثر عمقاً ودقة من ذلك، فهم يشرحون الإيمان أولاً، وبعد ذلك يشرحون خطورة الهرطقة على الإيمان نفسه، ثم على الحياة الروحية. هذا ما نراه في هذا الكتاب، حيث يشرح باسيليوس علاقة الروح القدس بالابن، وكيف أن إنكار شركة الروح القدس في جوهر الآب والابن يعني في النهاية إنكار عمل الابن نفسه. عندما يظهر هذا بوضوح، يصبح من السهل التعرف على معاني نصوص الكتاب المقدس.

لقد شرح القديس إيريناوس هذه النقطة بتشبيهٍ جميل عن فنان قام بعمل صورة جميلة من الفسيفساء للملك، ووضع فيها الكثير من الذهب والأحجار الكريمة. ولكن شخصاً آخر قام بفك الصورة وأعاد ترتيب القطع، وحوَّل نفس صورة الملك الجميلة إلى صورة كلب أو ثعلب (ضد الهرطقات ١: ٣ و ٨). ولذلك يلاحِظ إيريناوس أن كثرة الاقتباسات من الكتاب المقدس ليست برهاناً على صحة إيمان المؤلف، فالنصوص مرتبة حسب أهواء الهراطقة، والسبب هو هدف الهراطقة، فهم مشغولون بإثبات أن الصورة ليست مَلِكاً وإنما كلباً أو ثعلباً، بينما المؤمنون مهتمون بالكلام عن الملك وضرورة صورته للتعرف عليه هو شخصياً. **هذا هو الفرق بين الإيمان والهرطقة، فهو فرقٌ في الهدف، وفي النموذج. أما الهدف فهو الخلاص، وأما النموذج، فهو وسيلة البلوغ إلى الهدف**. فاستعمال صورة الملك، أي الهدف، ليس مثل استعمال صورة كلب أو ثعلب. وهنا نرى بكل وضوح أن النموذج والهدف هما في الواقع موضوعٌ واحد. فالعلاقة بين الإيمان أو العقيدة والخلاص هي مثل علاقة الروح بالجسد، لكن كيف يمكن أن نتعرف على النموذج والهدف؟ الرد هو: صلوات الكنيسة، لا سيما الصلوات الطقسية، فالهدف الواضح للإيمان، هو شركة الإنسان في الله عن طريق تجسد ابن الله، وسكنى الروح القدس، وبدون ذلك لا يمكن أن نتعرف على الله. الليتورجية إذن تجمع النموذج والهدف في وحدة واحدة. وهذا يعني أن أي تغيير في النموذج يعني تغييراً مباشراً في الهدف، وأن أي تغيير في العقيدة معناه تغيير في الخلاص، وهو بدوره يقتضي تغييراً في ممارسة الليتورجية، ليس فقط في الصلوات نفسها، بل فيما تقود إليه هذه الصلوات.

الحقيقة الواضحة، أننا لا نستطيع أن نتعرف على العقيدة والخلاص، أو النموذج والهدف إلَّا في نسيج واحد، وهو نسيج الليتورجية. لذلك لا نستطيع أن نتكلم -بشكل سليم- عن التجسد، ونخطئ في الكلام عن الروح القدس، أو الأسرار، أو وحدة جوهر الثالوث.

ما اهتم الآباء جميعاً بشرحه، هو أن النموذج، أي العقيدة وحدة متكاملة، وهذا هو هدف إيريناوس من الكلام عن الفسيفساء، فهي قطعٌ صغيرة متماسكة تصنعُ صورةً

واحدة، ولكن معالم الصورة تضيع لو امتدت يدٌ إلى جزء صغير من العقيدة لكي تغيِّر معالمه. وعندما تتغير أحد ملامح الصورة، فإن هدف التغيير يصبح واضحاً جداً من الاستعمال نفسه. لذلك، الليتورجية ليست مجرد كلمات أو صلوات. والطلبات ليست مجرد حديث عن الله أو مع الله، وإنما هي العلاقة الكيانية بين الإنسان الساقط الذي نال الخلاص، والله الذي خلَّصه بواسطة الابن المتجسد وبالروح القدس. فالليتورجية والصلاة، هي المجال الذي يكتمل فيه خلاص الإنسان بالابن وفي الروح القدس. وهذا المجال يظهر بشكل بارز في المعمودية والإفخارستيا، فكلاهما استعلان الثالوث، وكمال الخلاص، عندما يعطي الله في سر المعمودية عطية تبني الإنسان، ويضمَّه إلى الجسد الواحد، أي الكنيسة، بالروح القدس (١كور ١٢: ١١ – ١٣)، فينمو في الجسد الواحد بالإفخارستيا، الغذاء الإلهي الذي يعطى للمولودين من الماء والروح.

إذاً، فنحن في الصلوات الكنسية، ننتقل من مجال التعليم إلى مجال تذوُّق أسرار وعمق هذا التعليم. وهذا بدوره ما يجعل الفصل بين الإيمان والليتورجية، أي بين العقيدة والطقس مستحيلاً. والليتورجية هي إحدى دعائم التسليم الرسولي، فهي الممارسة العملية للأسرار، والإيمان كله، وتذوُّق الحياة الجديدة في يسوع المسيح بالروح القدس. هذا يجعل صحة الإيمان من الأمور الأساسية التي تجعلنا نفهم ونتذوق الليتورجية. وكلَّما ازداد فهمنا للإيمان، كلَّما ازدادت حلاوة الليتورجية، وطبعاً العكس صحيح.

لقد نقلت الليتورجية الإيمان كله عبر عصور الكنيسة، وخلقت الليتورجية وجدان الأباء، وحسَّهم الروحي السليم. فهي خبرة لا يمكن نقلها بالكلام، وإنما بالممارسة وبالتذوق الدائم لأسرار الله في يسوع المسيح. وقد نقلت الليتورجية، المسيحيةَ كلها، عقيدةً وصلوات وتذوُّقاً عبر كل عصورها، فصارت قناة التسليم الرسولي التي فاضت بالحياة، وعبَرَت فيها مياه الحياة من جيل إلى جيل. وبهذا نفهم معنى كلمة «تسليم»؛ لأن ما يُسلَّم هنا، هو الحياة وليس مجرد مبادئ وأفكار أو نظريات. وعلى هذا النحو، يمكننا أن نرى بكل وضوح أن الفصل بين الإيمان والليتورجية هو في الواقع تجاهُل تام للتسليم، هو مثل الفصل بين روح الإنسان وجسده، فلا الروح هي الإنسان ولا الجسد

هو الإنسان، وإنما الإنسان واحدٌ بكليهما.

وكذلك الصلاة في المسيحية، فهي ليست العبارات التي تقال، مع أن فيها عبارات كثيرة، ولا هي الطقوس التي تؤدَّى مع أن الجانب الطقسي ظاهرٌ، وإنما هي أسرار الله في المسيح التي تُنقل بالتعليم ويتذوقها الإنسان في الممارسة الكنسية. هي مواجهة إيمان الإنسان بما ناله، هي تذوُّق عمل الله الآب الذي أعطاه في الابن، والذي ينقله الروح القدس.

هكذا استخدم باسيليوس صيغة التعميد: «باسم الآب والابن والروح القدس» كملخَّصٍ للإيمان كله. فهذه الصيغة هي التي تُدخلنا إلى شركة الثالوث. فالتبني، يعطيه الآب لنا بالابن وفي الروح القدس. هذا التبني يتضمن تمجيد الثالوث الدائم، ويعني بشكل ظاهر، أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا في الكنيسة ويفهم التسليم الرسولي بدون المعمودية، ولا تُفهم المعمودية بدون الليتورجية. ولذلك لا يشرح باسيليوس صيغة التعميد على أنها اعترافٌ فقط بوحدة الجوهر (ف ١٠: ٢٤)، وإنما اختبار الخلاص الذي يعطى في المعمودية. كيف نصبح مسيحيين؟ عندما نولد من جديد بالنعمة في معموديتنا... (ف ١٠: ٢٦)، ولكن المعمودية ليست صيغة فقط، ولا هي اعترافٌ صحيح بالإيمان فقط، هي دوام الحياة في الثالوث القدوس. وكيف يحدث هذا؟ بالروح القدس الذي يعطى في المعمودية. ولذلك يقول باسيليوس: إن المعمودية بدون قبول الروح القدس هي معمودية ناقصة وليست حسب التسليم (ف ١٠: ٢٦). ويعود ليقول: إن يوم المعمودية هو أول يوم من أيام الولادة الجديدة (ف ١٠: ٢٦). ولذلك، اكتمال الحياة الجديدة هو أن يحفظ المؤمنون الروح القدس غير منفصل عن الآب والابن؛ لأن هذا هو الإيمان الذي قبلوه واعترفوا به في تمجيد الثالوث، وهو التعليم الذي قبلوه في معموديتهم (ف ١٠: ٢٦). من هذه الزاوية بالذات، يصبح **البقاء في الإيمان هو الدوام على التسليم الرسولي الذي قبلناه في المعمودية**. وتصبح المعمودية، هي تمييز الهرطقات التي تتعارض مع التعليم الذي تسلمناه. لا يستطيع أحد أن يسجد للابن إلَّا بالروح القدس، ولا يستطيع أحد أن يدعو الآب «أبَّا» إلَّا بروح التبني، أي الروح القدس (ف ١١:

.(٢٧

التفسير حسب النص، والتفسير حسب التسليم الرسولي:

أحد الأخطار الرئيسية التي جلبتها الهرطقات هي الاعتماد على نصوص الكتاب المقدس وحدها. فهذا في النهاية لا يخدم إلَّا أصحاب الآراء الخاصة، أي الهراطقة. والموضوع هنا ليس كفاية أو عدم كفاية كلمة الله في الكتاب المقدس، فهذا السؤال لم يكن مطروحاً بالمرة في زمن الآباء، وإنما النقطة الدقيقة الأساسية هي أن كلمة الله لا يمكن أن تُفهم بشكل صحيح، إلَّا على أساس ما استقر في الكنيسة، وهو الممارسة الحية لشعب الله في الليتورجية. وهي ممارسة الجماعة التي تنعكس بشكل واضح على الفهم الجماعي الذي تؤكده وتثبِّتُه الليتورجية. هذا هو الفهم الصحيح للعقيدة، وهو ليس فهماً عقلياً نظرياً، بل ممارسةً يدعِّمُها التذوُّق. فالعودة إلى الليتورجية هي عودة إلى التسليم الرسولي، والخروج على التسليم الرسولي معناه الاستسلام لتطرف التفسير الفردي للكتاب المقدس وخيالات كل فرد النابعة من تقديره الخاص.

المثال الواضح على ما نقول هو مناقشة نصوص الكتاب المقدس التي تؤكد أن المعمودية تُعطى باسم المسيح. هذه النصوص تعطي الانطباع لمن يقرأ الكتاب المقدس وحده بأن المعمودية تُعطى باسم المسيح فقط (غلاطية ٣: ٢٧ – رومية ٦: ٣)، فكيف يمكن أن نفهم هذه النصوص، وما هي العلاقة بين التعميد باسم المسيح وباسم الثالوث حسب (متى ٢٨: ١٩)؟

الدراسة النصية وحدها تؤكد وجود تضارب، لكن الليتورجية والخبرة المسيحية تؤكد عكس ذلك. هنا يسجِّل لنا القديس باسيليوس أن النصوص الخاصة بالتعميد باسم المسيح لا يمكن فصلها عن الممارسة الكنسية، أي التعميد باسم الثالوث؛ لأن اسم المسيح نفسه يؤكد لنا أن المسيح مُسِحَ بالروح القدس. ولذلك، فالاسم «المسيح» هو موجز وافٍ للإيمان كله (ف ١٢: ٢٨). وبالتالي إذا كان لنا شركة مع المسيح، فهذه

الشركة لا ترى تناقضاً أو تضارباً في النصوص، وإنما ترى أن اسم أقنومٍ واحدٍ من أقانيم الثالوث يكفي للإشارة إلى الأقنومين الآخرين، بسبب وحدة الجوهر. وهنا يؤكد باسيليوس أن المعمودية باسم أقنوم واحد، أي الممارسة الفعلية في الليتورجية، لا تحدث؛ لأن الكنيسة ترى أن هذه المعمودية غير كاملة. وحتى المعمودية التي تتم باسم الروح القدس، وهو الأقنوم الفاعل فيها، هي معمودية غير كاملة (ف ١٢: ٢٨)، لأن المعمودية تبنٍّ، والتبني لا يمكن أن يتم باسم أقنوم واحد. وتحديد المعمودية كتبنٍّ لا مجال له إلَّا في واقع التسليم الرسولي، أي «تعليم الأباء الذين عرفوا وتبعوا معنى الأسفار المقدسة الذي تسلَّموه» (ف ٧: ١٦).

نصوص الكتاب المقدس لا يمكن عزلها عن الحياة الكنسية؛ لأن هذا معناه –في الحقيقة– إخراج الكتاب المقدس خارج المسيحية نفسها. فالعقيدة لا يمكن فهمها إلَّا من خلال حياة الكنيسة التي تقوم على العقيدة والطقس. والتسليم ليس هو مجرد معنى نصوص، أي نصوص، ولو كانت نصوص الكتاب، بل هو تسليمٌ شاملٌ للإيمان، يقول عنه باسيليوس: إنه «تسليم معنى الأسفار». ولكن كيف يظهر هذا المعنى؟ يجيب باسيليوس: «الإيمان والمعمودية هما طريقا الخلاص، ولا يمكن فصلهما، لأن الإيمان يكمُل بالمعمودية والمعمودية مؤسَّسةٌ على الإيمان، وكلاهما مؤسَّسٌ على الأقانيم الثلاثة» (ف ١٢: ٢٨).

إذاً، معنى الأسفار والإيمان كله، كامنٌ في داخل الأسرار، لا سيما المعمودية. ومعنى الأسفار في النهاية تضبطه عقيدة الثالوث الذي نتذوقه في الأسرار، لا سيما المعمودية. هذا يجعل التعميد باسم الثالوث هو الأساس الذي عليه، نفهم أن معنى التعميد «باسم المسيح» هو إشارةٌ إلى التعليم والانضمام إلى الكنيسة ونوال المسحة، ولا يعني بالمرة ممارسة المعمودية نفسها باسم أقنوم الابن دون الآب والروح القدس. وكيف يمكن لمن يقرأ الكتاب المقدس فقط أن يصل إلى هذا الفهم الواضح؟ الجواب بالنفي؛ لأن فهم الكتاب المقدس لا يمكن أن يتم خارج الكنيسة، فالكتاب المقدس بدون الليتورجية يصبح غامضاً ولا يمكن إدراكه بشكل سليم.

التسليم غير المكتوب:

يقول باسيليوس إن الفرق بين المؤمنين والهراطقة هو أن الهراطقة «يطلبون البراهين من الكتاب المقدس ويرفضون تسليم الآباء غير المكتوب» (ف ١٠: ٢٥)، فما هو تسليم الآباء غير المكتوب؟ هو بكل يقين ما تمارسه الكنيسة، وهو غير مدوَّن في أسفار الكتاب المقدس، ولذلك وحده يُوصَف بأنه «غير مكتوب». ويسميه القديس باسيليوس أيضاً: «ترتيب الكنيسة» (ف ١٦: ٣٩). وكلمة ترتيب لا تعني الطقوس فقط، وإنما الحياة الكنسية كلها، بما فيها توزيع عطايا الروح القدس على الذين أقامهم الروح لقيادة الكنيسة، وتسليم المؤمنين معرفة الله (ف ١٥: ٣٥). فالترتيب ليس مجرد نظام، بل هو الحياة المسيحية. والتسليم غير المكتوب، يُوصَف هكذا؛ لأنه لم يكن مدوَّناً في العصر الرسولي، ولكنه معروفٌ من ممارسة الكنيسة، وبشكل خاص في الليتورجية. فهو ليس أموراً غامضة غير معروفة، ولا عادت مجهولة، إنه الكنيسة ككل. والأناجيل أربعة، تسليمٌ غير مكتوب، أي لم يدوَّن في وثيقة، ولكنه من القوة بحيث أنه جعل كل الكتابات الأخرى التي تُنسَب للرسل تسقط تماماً من الاعتبار مثل رسالة برنابا أو الديداكي، فهي كتابات مقبولة ولكنها ليست من وضع الأباء الرسل.

والتسليم غير المكتوب هو الأمور التي ذكرها القديس باسيليوس نفسه: «علامة الصليب – قبول الموعوظين – الاتجاه إلى الشرق – الوقوف أثناء الصلوات وعدم الركوع يوم الأحد – استدعاء الروح القدس في الطقوس الكنسية، وبشكل خاص في القداس – تقديس الماء وزيت الميرون – جحد الشيطان – الغطسات الثلاثة في التعميد» (ف ٢٧: ٦٦ – ٦٧). ولا يصف القديس باسيليوس هذه الممارسة على أنها عادات مجهولة الأصل، أو أنها نمت بحكم الزمان وتطور الطقوس الكنسية، بل يصفها بأنها «تسليم الرسل» ولم تدوَّن، وهنا يجب أن ندرس هذا التعبير الهام الذي يصوغه باسيليوس على هذا النحو: "تسليمٌ صامتٌ وسرِّيٌّ غيرُ مُذاعٍ؛ لأنه من مصدرٍ سرِّيٍّ". وهنا، كلمة "سري" تعني ما يخص الأسرار، وهو أصلاً لا يُذاع ولا يُنشر كعادة الكنيسة في إعلان عقائدها وأسرارها تدريجياً حسب قدرة ونمو السامعين وانتقالهم من رتبة الموعوظين إلى رتبة

المؤمنين. هذا الوضع قديم جداً، ودار حوله جدلٌ طويل بين علماء الطقوس، انتهى إلى أن التسليم السري هو عقائد وأسرار وطقوس الكنيسة التي لا تُذاع خارج الكنيسة بالمرة؛ لأنها أمورٌ لا يفهمها إلَّا المؤمنون. وهو ما يُعرف الآن في الدراسات المعاصرة باسم التسليم السري *Disciplina Arcani* أي التعليم غير العلني الخاص بالمؤمنين فقط، وهو الطقوس والصلوات، مثل الصلاة الربانية وقانون الإيمان.

الكتاب المقدس والتسليم:

"التسليم" هو أشمل وأعظم من الطقوس، إنه الحياة المسيحية نفسها بكل ما فيها من عقائد وممارسات كنسية وأسرار وصلوات. وهنا لا يميِّز القديس باسيليوس بين مصدرين للتعليم، الأسفار والتسليم. فهذا التمييز لم يكن معروفاً في اللاهوت المسيحي شرقاً وغرباً، حتى حركة الإصلاح البروتستانتية التي قامت على أساس نقد التسليم من خلال الكتاب المقدس. ومنذ ذلك استقر في الكتابات اللاهوتية الحديثة تعبير «الكتاب المقدس والتقليد، أو التسليم». ولكن مثل هذا التمييز لمصدرين لم يكن معروفاً بالمرة في كتابات الآباء. والكتاب المقدس ليس مصدراً أعظم أو أقل من التسليم، فهذه المقارنة لم تنشأ إلَّا بظهور حركة الإصلاح البروتستانتية. وباسيليوس نفسه يقول إن الكتاب المقدس هو سر تدبير الابن، ولذلك لا يمكن قبوله إلَّا عند الذين قبلوا تدبير الابن (رسالة ١٨٩: ٣)، أي الذين توفر لهم الإيمان الصحيح. والإيمان الصحيح هو الخبرة الروحية التي تجعل من يقرأ الأسفار يميِّز دقة معاني الكلمات: «من يفسِّر الكلمات الإلهية في الأسفار، عليه أن يبدأ من نفس مستوى الذين كتبوا الأسفار... وأقوال الروح القدس في الأسفار ليست سهلةً لكي يتعرف كل واحد على دقة ومعاني كلمات الروح القدس، فهذا لا يتوفر إلَّا للذين أعطاهم الروح القدس عطية التمييز» (رسالة ٢٠٤).

إذن، لا يوجد لدينا مصدران للتعليم، ولا شرحٌ للنصوص، وإنما حياةٌ مسيحيةٌ حقة قائمة على الإيمان الصحيح وعطية التمييز. وهذا ما نراه في تاريخ الكنيسة، فلم يبرز من الأساقفة والرهبان والعلمانيين إلَّا عددٌ قليل جداً يمكن حصره وتحديده من بحر البشر

غير المعروف للمؤمنين المسيحيين. هؤلاء القلة قادوا الكنيسة؛ لأنهم تمتعوا بالإدراك والتمييز، ولا زالت كتاباتهم تعتبر المرجع الأساسي لكل الأمور الأساسية في الكنيسة. القضية الواضحة إذن، هي إذا زاغ قلب الإنسان، فإن النصوص والكتب بأسرها لا تستطيع أن تعيد الإنسان إلى الإيمان. وإذا عاد الإنسان إلى الإيمان، فإن الممارسة أقوى من الكلمات، وقد يجد الإنسان لذةً وشبعاً فكرياً في العقيدة، لكن الشبع الحقيقي هو تخطي الفكر إلى الواقع الروحي وتذوق أسرار الله، أي أعمال الروح القدس التي تسطع بجمال فائق في طقوس الكنيسة.

الروح القدس في كتاب باسيليوس:

من الضروري جداً إبراز بعض العناصر الأساسية، دون أن نضع كل شيء؛ حتى لا يكتفي القارئ بهذه المقدمة ولا يقرأ الكتاب نفسه.

أولاً: يدرس باسيليوس موضوع حروف الجر لكي يؤكد أنه لا يوجد حرف جر خاص يقدِّم لنا معنىً مختلفاً (٢: ٤ – ٣: ٥ – ٤: ٦ – ٥: ٧ – ١٠)، فالروح هو شريك للآب والإبن في الجوهر، وفي توزيع المواهب (٨: ١٩)، فالآب يخلق بالإبن، ويكمِّل الخليقة بالروح القدس (١٦: ٣٨).

ثانياً: الروح القدس يتَّحدُ بالنفس، ولكن ليس في مكان معين، بل في كل النفس الإنسانية (٩: ٢٣)، وعندما يسكن الروح القدس تعطى المواهب (٩: ٢٣)، وأقنوم الروح القدس حاضرٌ في النفس؛ لأنه يكمِّل عمل الإبن (١٩: ٤٨)، ولا يعطي باسيليوس الاهتمام الكبير بالمواهب قدر اهتمامه بسكنى الروح في الإنسان، فهو عطية حياة (٢٤: ٥٦)، من هنا ندرك أن أهم ما يحرص عليه باسيليوس هو كيف يكمِّل الروح القدس عمل أقنوم الإبن الكلمة المتجسد.

ثالثاً: وحضور الروح القدس في حياة المؤمنين يعني أنه لا يُفارق النفس الإنسانية إلَّا في يوم الدينونة (١٦: ٤٠)، فهو أي الروح القدس إكليل البر الذي يوهَب لكل

إنسان فاز بالحياة الأبدية (١٦: ٤٠).

رابعاً: والفرق بين الروح القدس والقوات السمائية، هو فرقٌ بين مَن هو في ذاته روح القداسة، وبين من ينال التقديس بالروح القدس، وهنا يضع باسيليوس الأساس اللاهوتي السليم، فالله وحده هو بالطبيعة قدوس، أما الخلائق جميعاً فهي تأخذ من الروح القدس، لا سيما الملائكة (١٦: ٣٨)، والتقديس هو اكتمال هدف خلق كل القوات السمائية، وهو أيضاً اكتمال أو إكمال خلق الإنسان –أي نوال الشركة في الحياة الإلهية (١٣: ١٩)، وهذه الشركة هي الحياة الأبدية (١٥: ٣٥)، والدليل عليها هو الفضائل الإنجيلية التي تُعطِي صورةً مسبقةً عن الحياة الإلهية في الإنسان (١٥: ٣٥).

وأخيراً: عمل الروح القدس هو على قدر احتمال كل كائن (٩: ٢٢)، فكلٌ ينال ما يمكن أن يحتمله، وهذا يعني أن الشركة في الحياة الإلهية ليست عملاً يُفرض على النفس، بل تسعى إليه النفس بالمحبة.

الأقنوم والمواهب، وماذا يمكن أن نتعلم من القديس باسيليوس؟

نرجو من القراء مراجعة وتدقيق ما استقر في الوعي في السنوات الثلاثين الماضية، لا سيما شيوع استخدام تعبير جديد هو تعبير "الحلول المواهبي"؛ لمجرد إبعاد الروح القدس عن الحياة والاكتفاء بالمواهب فقط.

ثرثرة حول الحروف والالفاظ:

يلاحظ القديس باسيليوس أن الهراطقة لديهم "تطرُّف يظهر في التدقيق حول الألفاظ والكلمات ... الشر الذي يبتغونه ليس هيِّناً، فهو ينطوي على قصدٍ مظلم وماكر وموجَّه ضد الإيمان الصحيح" (ف ٢: ٤)، ثم يذكر أن الهراطقة "يثرثرون كثيراً حول الحروف لكي يدعِّموا رأيهم المخرِّف" (ف ٢: ٤)، ويؤكد أن "استخدام الحروف في الأسفار هو استخدامٌ غير مقيَّد حسب التعبير المطلوب وكلما دَعت الحاجة" (ف ٤:

٦)، ولذلك، الجدل حول كلمة "شركة في"، أو "شركاء في"، أو "شركاء بدون في" هو ثرثرة فارغة؛ لأن حرف الجر "في" له عدة معاني متنوعة" (ف ٥: ٩) وحرف الجر "من" هو δια وهو حرف "الباء" في العربية "استُخدم في الأسفار المقدسة للآب والابن والروح القدس بدون تمييز خاص" (ف ٥: ٩). ويقدِّم مثلاً يلغي تماماً ذلك التعبير الجديد "الحلول المواهبي"، إذ يقول: "ويوحنا أيضاً يكتب (ومن هذا نعلم أنه يقيم فينا δια بالروح الذي أعطاه لنا)" (يو ٣: ٢٤).

حرف الجر "في":

وعن حرف الجر "في" يقول باسيليوس: "إن الاقتباسات التي يظهر فيها حرف الجر "في" تفوق الحصر، ولذلك لا أريد أن أقدِّم المزيد من النصوص لكي أبرهن على أن تعليم المقاومين ليس سليماً. وطبعاً لا نحتاج الى النصوص التي يُستخدم فيها حرف الجر "في" للابن والروح القدس فهي لا تنفع" (ف ٥: ١١).

علاقتنا بالله لا تخضع لقواعد الإعراب والحروف:

بعد أن أكَّد القديس باسيليوس أنه "ليس فقط في اللاهوت (الكلام عن الله) تختلف التعبيرات، بل كثيراً ما يحلُّ تعبيرٌ محلَّ تعبيرٍ آخر، وأحياناً يحلُّ حرفُ جرٍّ محلَّ حرفِ جرٍّ آخر دون أن يعني هذا تغييراً في المعنى ..." (٩: ١٢).

فما هو السبب في هذه الحرية؟

١– علاقتنا الجديدة بالثالوث بدأت بتجسد الكلمة، وهذا ليس نصاً أو كتاباً، بل هو شخص وأقنوم الابن مُعلِن الآب وواهب الروح القدس من عند الآب (يوحنا ١٤: ١٦). والآب أقنوم "من رآني فقد رأى الآب" (يوحنا ١٤: ٩)، والروح القدس اقنوم؛ لأن مَن ينبثق من الآب ليس قوةً أو طاقةً، بل هو الأقنوم الثالث الذي يُعطى لنا بواسطة الأقنوم الثاني (يوحنا ١٥: ٢٦)، وهكذا، فإن علاقتنا بالثالوث لا تقوم بنصٍّ، أو

سفرٍ، أو حتى أسفار، بل هي استعلانات شخصية، أي أقنومية. وقد جرت العادة على استبدال كلمة "أقنوم" بكلمة "شخص"، في الوقت الذي تتعمد فيه حركة نهضة إنجيلية مزيَّفة –بكل ما تحمله كلمة تزييف من معان نخجلُ من حصرها– على تأكيد العلاقة الشخصية بالمسيح كربٍّ ومخلِّصٍ، في حين أنها لا تؤكد أن هذه العلاقة هي العلاقة الأقنومية (الشخصية) بأقنوم الإبن، بل تنكر هذه العلاقة من خلال الهجوم البذيئ على العشاء الرباني، سر العطاء الأقنومي أو الشخصي الذي يقدِّم فيه الرب حياته لنا "مَن يأكلني يحيا بي .. يكون فيَّ وأنا أكون فيه" (يو ٦: ٥٦ الترجمة القبطية).

والسؤال: هو لماذا تعلو العلاقة الشخصية أو الأقنومية على الألفاظ؟ والجواب هو: لأن الشخص سَبَقَ اللفظ. واللفظُ، بل وكل خطابٍ عن الشخص، هو إعلانات ودعوة، بل مع الدعوة تأتي أهم استعلانات العهد الجديد، وهي النعمة أو العطية أو الهبة، ومنها جاءت كلمة "مواهب". وبدون أن نقع في فخ الهراطقة نقول إن العلاقة مع الشخص الذي يدعوني إلى شركة في حياته، وتصبح حياته هي نفسها الشركة، وتصبح الشركة عطية ونعمة، لا يمكن أن تكون هذه علاقة لفظية كتابية، بل علاقة كيانية.

النعمةُ إذن هي سبب حرية استخدام الألفاظ.

هل تقيِّدُ الألفاظُ النعمةَ؟

بكل تأكيد لا. ما هو السبب الحقيقي لذلك، بل ما هي الأسباب؟ والجواب هو:

* اللفظ والخطاب والنص والكتاب، لم يكن هو الواهب والعاطي، بل الأقنوم أو الشخص.

* العطيةُ نفسها ليست كلمةً ولا سفراً ولا كتاباً، بل حياةٌ جديدةٌ، هي حسب كل حروف الجر التي استخدمها رسول المسيح بولس: من المسيح – مع المسيح – في

المسيح – بالمسيح – للمسيح، وهي تربو على مائة عبارة صريحة واضحة[1]، ويكفي هنا إلى قول معلمنا بولس الرسول: "مع المسيح صلبت" (غلا ٢: ٢٠)، فهل هذه مجرد عبارة، أم هي فعلٌ وحياةٌ تمتد من بداية الايمان حتى نهاية حياة بولس نفسه الذي استُشهِدَ في روما حسب التاريخ الكنسي؟

* اللفظ أو الخطاب، بل كل النصوص لا تحدد العلاقة، ولكن النصوص تؤكدها كشهادة على قيامها، مثل: "محبة الله الآب ونعمة الابن الوحيد وشركة الروح القدس" (٢ كو ١٣: ١٤)، فهل يمكن لأي عاقل تحت الشمس أن يقول لنا إن محبة الله الآب هي مجرد لفظ، أم أنها تجلت في إرسال الابن، وإن إرسال الابن هو تجسده؟ وهل نعمة الابن الوحيد هي فقط كلمة، أم هي حالة الغنى الذي أسبغه علينا يسوع المسيح ربنا بإخلائه لذاته: "لأنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع الذي افتقر وهو الغني لكي تغتنوا أنتم بفقره" (٢كو ٨: ٩)؟ أوليس الغني الذي ناله هو التبني – التجديد – الحياة الأبدية – عطية الروح القدس – ميراث الملكوت السماوي، أم أنه شيءٌ آخر؟!!

التزييف:

"الحلول المواهبي"؟! هكذا جاء تزييف الإيمان، حتى من داخل بعض المحسوبين على أم الشهداء نفسها، باستخدام كلمات تهدف إلى حصر علاقتنا بالثالوث في لغو وألفاظ وكلمات تجعل مَن يقرأ هذه الكلمات يتوه ويفقد الهدف الذي لأجله جاء الابن وأُرسِل الروح القدس .. والسؤال لمن يزيِّف الايمان: إذا كانت علاقتنا بالروح القدس تقتصر على ما أسموه "الحلول المواهبي"، لماذا أرسل الابنُ الروحَ من عند الآب؟ هل لكي يبقى بعيداً لا يشترك معنا في حياتنا؟ هل كانت المواهب تستلزم إرسالية الروح، أم أن سكنى الروح فينا هي كمال الفداء والخلاص؟ وكيف إن كان حلول الروح القدس فينا

(١) راجع في ذلك بالتفصيل كتابنا: مع المسيح في آلامه وموته وقيامته، الأصول الرسولية لكتاب الأب متى المسكين، القاهرة، ٢٠١٢. وكذلك كتابنا: الكنيسة جسد المسيح، المسيح والمسيحي وشركة الجسد الواحد، القاهرة ٢٠١٤. وكلا الكتابين منشوران على موقع الدراسات القبطية واللاهوتية www.coptology.com

حلولاً مواهبياً، كيف له أن:

- يئن في شفاعته (رو ٨: ٢٦).

- يذكِّرنا بكل ما قاله الرب يسوع (يوحنا ١٤: ٢٦).

- يخبرنا بأمورٍ آتية (يوحنا ١٤: ٢٦).

- يقدِّسنا لأنه قدوس (١ بطرس ١: ٢).

- يقود حياتنا اليومية، وهو عمل الروح القدس اليومي "بر وسلام وفرح في الروح القدس" (رو ١٤: ٢٧)

- يقيم أجسادنا في يوم الدينونة (رو ٨: ١١).

- اعترافنا بالإيمان هو بالروح القدس (١كو ١٢: ٣).

بل هذا ما يقدِّمه لنا المعلم الكنسي الأصيل، القديس باسيليوس عن الروح القدس:

- بالروح القدس، استعدنا سكنانا في الفردوس.

- وصعودنا إلى ملكوت السموات.

- وعودتنا إلى مكانة البنوة.

- وحريتنا في أن ندعو إلهنا الآب.

- وشركتنا في نعمة المسيح.

- وتسميتنا أبناء النور وميراثنا في المجد الأبدي.

– وباختصار شديد حصولنا على ملء البركة (رو ١٥: ١٩) في هذه الحياة والحياة الآتية (ف ١٥: ٣٥). ماذا تعطينا المواهب من كل ما تقدَّم؟!!

الأقنوم، أي الشخص والمواهب:

وكما استخدم بعضهم تعبير "الحلول المواهبي" لتفريغ علاقتنا بالروح القدس من مضمونها ومعناها، جرت أيضاً في الآونة الأخيرة محاولة يائسة –من بعض الأساقفة– لتحديد النعمة بأنها طاقة أو قوة، وكأننا بصدد درسٍ في الميكانيكا أو الكهرباء!

لكن هل هي هكذا في اللاهوت المسيحي؟ لقد تخيل أحدهم –دون أن يدرس العلوم اللاهوتية– أن الكلمة اليونانية ἐνέργια تعني طاقة، ولكن عند الآباء، والمرجع هو قاموس المصطلحات اليونانية لآباء الكنيسة للأستاذ *G.W.H. Lampe* العامود الثاني ص ٤٧٠ هو حسبما ذكر بشكل عام *Operation – Activity* ولذلك يوصف الروح القدس بأنه الفاعل في صلاة استدعاء الروح القدس في القداس الكيرلسي.

ولكي نبتعد عن الفهم الميكانيكي الآلي الذي لا يليق بالثالوث، يذكِّر القديس كيرلس الأورشليمي الموعوظين بجحدهم للشيطان، وقد دخلوا المرحلة الأخيرة قبل التغطيس في الماء: "أجحدك أيها الشيطان .. وأنا لا أخاف قوتك، لأن المسيح قد كسر هذه القوة بشركته في اللحم والدم معي، وبتدبير اتخاذه، كَسَرَ بموته قوة الموت لكي يخلصني من العبودية الدائمة" (عظة ١٩: ٤)، فهل القوة هنا –مهما كان تحديد هذه القوة– هي مثل قوة الكهرباء أو اندفاع المياه أو قوة الحرارة، أم أنها الشركة في الحياة الإلهية، وأنها قوة التجديد التي جاء بها تجسد الرب وموته وقيامته، ونهاية سطوة الموت؟

أثناء خدمة الرب بالجسد، عندما كان الذين حوله يزحمونه ولمسته المرأة النازفة الدم، فإن الرب –لكي لا نقع في منهج التقسيم– قال أولاً مَن لمسني؟ لأن قوة كانت قد خرجت مني (لوقا ٨: ٤٦) فلا ازدواجية بين الرب والقوة (δύναμις)، بل إن القوة، أي قوة العلي هي الروح القدس نفسه في بشارة الملاك إلى أم النور (لوقا ١: ٣٥)، وعاد

يسوع بعد معموديته مملوء بالقوة، أي قوة الروح (لوقا ٤: ١٤)، وذات القدرة أو القوة ἐνέργεια هي التي سوف تغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل قدرته (استطاعته) أن يُخضِع كل شيء (فيلبي ٣: ٢١). ألا يخجل أصحاب التقسيم؛ لأن القدرة هي قدرة أو استطاعة الأقنوم؟ ومع أن العهد الجديد استخدم كلمة قوة = δίναμις بوفرة، واستخدم ἐνέργεια مرة واحدة في فيلبي ٣: ٢١ فإن القوة الأزلية أو الأبدية (رو ١: ٢٠) هي ليست آخراً، أو كياناً مخلوقاً، أو قوة تضاف إلى الأقنوم؛ لأن هذا الفكر بالذات يعود بنا إلى الأريوسية والمقدونية والأنومية.

مثال عن القوة الشخصية أو الأقنومية:

في (ف ٢٦: ١١) يقول القديس باسيليوس: "يمكن أن نشبِّه عمل الروح القدس بقوة الإبصار في العين السليمة؛ لأن عمله في تنقية النفس يشبه قوة الإبصار. وهذا ما جعل بولس يصلي للذين في أفسس لكي «تستنير عيونهم بروح الحكمة» (أف ١: ١٧). وكما أن الذي يتعلم الفن، يظل فيه، هكذا نعمة الروح القدس، تظل في الذي يقبلها حاضرةً دائماً، ولكن لا تعمل في النفس بشكل دائم. لأن الفن يظل كامناً في الفنان، ويعمل فقط عندما يسمح الفنان لقوة الفن بأن توجِّهه. هكذا الروح القدس، حاضرٌ دائماً في الذين يستحقون عمله، ولكنه يعمل حسب الاحتياج في النبوة، أو الشفاء، أو القوات الأخرى".

هل يمكن إزاء هذا الوضوح لأيِّ عاقلٍ يبحث عن الحياة في المسيح، أن يقع في ازدواجية وفصل الروح عن المواهب؟

يبدو الأمر وكأن القديس باسيليوس يعيش معنا في مصر، أو كأنه رأى ما سيقال عن الروح القدس، لذلك تقول بقية الفقرة:

"ويمكن أن نضيف تشبيهاً آخر، فكما أن الصحة والحرارة كامنة في الجسد مع القوات الأخرى، لذلك –بشكل دائم– يكون الروح القدس في النفس، لكنه لا يسكن

بفاعلية في الذين -بسبب عدم ثبات إرادتهم- يجحدون النعمة التي نالوها ... والروح القدس يسكن في النفس مثل الإدراك الذي يكوِّن فكرةً في القلب".

أما عن توزيع المواهب فيقول:

"ونحن نعتقد بأن الروح -بالنسبة لتوزيع المواهب- هو مثل الكل الحاضر في الأجزاء، لأننا جميعاً أعضاء بعضنا البعض، ... وكما أن الأجزاء في الكل، هكذا نحن كل فرد منا في الروح؛ لأننا جميعاً «اعتمدنا إلى جسد واحد بروح واحد» (١كور ١٢: ١٣).

وهكذا يمكننا أن نحكم على مدى صحة التعليم بتقسيم الأقنوم الثالث إلى مواهب، كل موهبة ليس لها علاقة بالروح القدس!!!

التقديس وعمل الروح القدس في الإنسان والكنيسة:

أولاً: الروح القدس هو مكان القديسين، وكل قديس هو حقاً مكان الروح القدس" (ف ٢٦: ٦٢). في ظل استخدام التعبيرات الجديدة، لا نسمع عبارات مثل هذه بسبب الحرب ضد روح الله.

ثانيا: عمل الروح القدس هو: يقيم الأموات ويحيي مع الله الآب (١ تيمو ٥: ١٣).

* يعطي الحياة الأبدية (رو ٨: ١٠).

وسؤال القديس باسيليوس بعد كل ما ذكره في الفصول السابقة: "كيف يمكن أن نفصل الروح عن قوته الإلهية المحيية، وننسبه إلى الخليقة المحتاجة إلى الحياة" (ف ٢٤: ٥٦)؟

* الروح هو عطية الله، ولكنه عطية الحياة؛ لأن شريعة روح الحياة هي التي

جعلتنا أحراراً" (رو ٨: ٢).

* وهو "عطية القوة؛ "لأنكم ستنالون قوة متى حلَّ الروح القدس عليكم" (أع ١: ٨)، فهل لذلك السبب نستهين به"؟

وطبقاً لذلك، يصبح الذين يتخذون من محبة الله العظمى وشفقته فرصة للتجديف أشدُّ نكراناً من اليهود. هؤلاء يقاومون الروح لأنه أعطانا الحرية ... وبسبب هذه العطية يصبح صوت الروح القدس هو نفسه صوت الذين نالوه" (المرجع السابق).

القداسة:

يُدعى الروح القدس "قدوسٌ". هذا ما نردده في تسبحة الشاروبيم في القداس الإلهي، ويؤكده القديس باسيليوس في (ف ١٩: ٤٨).

سؤال ذو دلالة:

"قداسة الخليقة ليست كامنة في كيان الخليقة، بل تُوهب من الخارج من الله. أمَّا قداسة الروح القدس فهي تملأ طبيعته، ولذلك السبب ذاته لا يوصف بأنه تقدَّس، بل بالحري هو الذي يقدِّس" (ف ١٩: ٤٨).

فإذا كانت القداسة هي طبيعة الروح القدس؛ لأنه قبل ذلك في (ف ١٨: ٤٦) يقول المعلم الكنسي: "الروح القدس أقنوماً حيَّاً مميَّزاً بطبيعة التقديس الفائقة"، فالتقديس إذن هو ما يميِّز الأقنوم الثالث، فإذا صار التقديس –حسب تعليم مطران دمياط– مجرد طاقة أو قوة، ألا يفقد الروح القدس –بذلك– كيانه الأقنومي، ويتحول من أقنوم إلى طاقة، وبالتالي ينحل الثالوث؟ ألا يعتبر ذلك تجديفاً على روح الله؟!!!

نقول للمطران حذار من التجديف على روح الله؛ لأن من يجدف على الروح القدس، لا مغفرة له (مر ٣: ٢٩ – لو ١٢: ١٠).

تقديس القوات السماوية:

"القوات النقية العاقلة .. هي مقدسة وتظل كذلك لأنها تنال نعمة التقديس بواسطة الروح القدس .. وتنال كيانها بواسطة حضور الروح القدس" (ف ١٦: ٣٧).

التقديس هو تكميلٌ وثبات:

"وتكميل الملائكة هو تقديسهم واستمرارهم في التقديس .. الرب يعطي الأوامر، والكلمة الذي يخلق، والروح الذي يثبِّت، وما هو التثبيت سوى التكميل بالتقديس. والتكميل يعني الثبات وعدم التغيُّر، والتمسك بالصلاح، فلا تقديس بدون الروح القدس، وقوات السموات ليست مقدسة بطبيعتها، فلو كانت مقدسة بطبيعتها، فلا يصبح بينها وبين الروح القدس فرق" (المرجع السابق).

"القوات غير المنظورة هي حرة، وإن القوات الساقطة في حالة اختيار بين الفضيلة والرذيلة؛ لذلك تظل بحاجة إلى معونة الروح القدس لكي تثبت في التقديس، ولأنها لا تنال هذه المعونة تفقد حريتها" (المرجع السابق).

ولاحظ أن القديس باسيليوس يؤكد مرةً ثانيةً أن تقديس القوات السماوية "يأتي إليها من خارج طبيعتهم ويُبَثُّ فيهم كمالهم من خارجهم"، كيف؟ "بشركة الروح القدس". ثم يؤكد "إنك لو أزلت الروح القدس، تنحل القوات الملائكية وتهلك الكراسي ورؤساء الملائكة وكل شيء يسقط في الفوضى" (ف ١٦: ٣٨).

فإذا كان التقديس ليس طبيعةً فينا ولا حتى في القوات السماوية، أفلا يُعدُّ التخلي عن الروح القدس وسكناه، مساوياً ليس فقط لإنكار الثالوث، وإنكار التقديس، وإنكار الحياة الأبدية، بل فقدان لشركتنا مع الثالوث؟

ألا يُعدُّ هذا موضوعاً جديراً بأن يُدرس بكل أبعاده، حتى لا ينفرد شخصٌ

طائشٌ بشطحات لغوية تؤدي إلى تهويد الإيمان، باعتبار أن إنكار الثالوث هو عودة للعهد القديم؟

الجوهر والقوة:

"جوهره بسيط وقوته متنوعة، **حاضرٌ كله** في كل أحد؛ لأنه حاضر في كل مكان، موزَّعٌ على الكل دون أن يعاني التقسيم" (ف ١٦: ٢٢).

وعندما "يتحد الروح القدس بالنفس" (ف ٩: ٢٣)، ماذا يحدث للنفس؟

- "تصبح بدورها روحانية".
- "تنال معرفة المستقبل".
- "المواطنة السماوية".
- "مكان في خورس تسبيح الملائكة".
- "فرحاً بلا نهاية".
- "بقاءً دائماً في الله".
- "التشبُّه به".

والأهم:

- "وأسمى من كل هذا أن نصير آلهة" (ف ٩: ٢٣).

أخيراً: والسؤال هو للقديس باسيليوس:

"كيف نصبح مسيحيين؟ الإجابة معروفة للكل: بالايمان، وبأي طريقة نخلص؟

بوضوح: نُولد من جديد بالنعمة التي تعطى في معموديتنا .. صرت بالمعمودية ابناً لله" (ف ١٠: ٢٦).

لقد فقدنا الشركة مع الله بالسقوط (ف ١٥: ٣٥)، ولكن الرب جاء وأعطانا الروح القدس لكي يكون لنا "شركة مباشرة مع الله" (ف ١٥: ٣٥) وعندما تغيب "شركة الروح القدس" من الوعي، بل من الممارسة، تموت الحياة الجديدة فينا. فقد صار الروح القدس هو "المسحة" الذي يقدِّس؛ إذ لا يمكن أن تستمر الحياة العقلية الفائقة وفق قانونها (التقديس والثبات) بدون الروح القدس. إن ثبات العالم الروحي بالروح القدس هو مثل ثبات الجيش ... ولا يمكن أن يتحقق ذلك إذا غاب قائده، أو مثل انسجام الخورس، الذي يتداعى؛ إذا أهمل مديره القيادة وضبط الأنغام. وكيف يقول السارافيم قدوس قدوس، إذا لم يعلِّمُهم الروح القدس الوقفات اللازمة التي تنسجم مع الحياة الروحية والتي تسمح لهم بأن يرفعوا أصواتهم بالتمجيد؟" (ف ١٦: ٣٨). وهو لذلك يعطى "للذين خُتِموا مرةً، وهو يعمل على خلاصهم إذا ما عادوا، وإلَّا، فأنه يقطع تماماً من النفس التي تدنس نعمته ... لأنه لا توجد معونة من الروح فهو ليس حاضراً في الذين ابتعدوا عن الله" (ف ١٦: ٤٠).

لم أحاول أن أقدِّم حتى ملخصاً وافياً للكتاب؛ لأن الكتاب لا يجب أن يُلخَّص، ولكنني أبرزت أهم نقاط تُعارِض التعليم المزيَّف السائد في أم الشهداء بواسطة بعض الأساقفة، راجين من الروح القدس أن يعيد إلينا ما فقدناه، ويقيم لنا المعلمين الصالحين الذين نالوا شركة الروح القدس وسكن فيهم الثالوث لكي يردوا للأرثوذكسية قوتها وغناها الإلهي، ويجمعوا قطيع المسيح الذي يقوده رعاةٌ بعضهم كذبة.

د. جورج حبيب بباوي

الأحد الثاني من الصوم الكبير

٢٠١٤